مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد01 بتاريخ 15 جانفي 2020م
ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الحضور الأسطوري في رواية السد لمحمود المسعدي

The legendary presence in the narration of the dam by Mahmoud Al-Masadi

الدكتور إسماعيل بن صفية[1]

Dr. Ismail bin Safia

جامعة عنابة الجزائر bensefia@live.com

Annaba University of Algeria

تاريخ الارسال: 2019/05/18م تاريخ القبول: 2019/05/19م

الملخص:

المسعدي أحد هؤلاء الذين أغرتهم الأساطير، فأقبل عليها في أكثر من نص، وفي مراحل زمنية متقدمة، مما أهله إلى أن يكون أحد رواد التوظيف الأسطوري ليس في الرواية التونسية فحسب بل في الأدب العربي، وتشكل رواية السد أنضج نص تونسي وظف الأسطورة باقتدار وكشف عن الوجه الآخر في ثقافة المسعدي التي تشكلت من التأثر بالآداب الأجنبية والأساطير القديمة إلى جانب الثقافة العربية التي كانت نقطة الانطلاق في الاطلاع على ثقافة الآخر وأدبه.

[1] المؤلف المرسل: الدكتور إسماعيل بن صفية ، الايميل: bensefia@live.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بنى أحداث النص على فكرة الخلق وأصبغ على بطله ملامح وأبعاد أسطورية سواء ما تعلق منها بالأفعال أو الصفات، وطعمه بشخصيات أسطورية من العالم الآخر، فماهي هذه الملامح وأين تكمن الأسطورة سواء على مستوى الأحداث أو الشخصيات.

الكلمات المفتاحية : الأسطورة ، السد، الرموز، غيلان، ميمونة، الآلهة، الخلق، صاهباء.

Abstract:

Mahmoud Massaadi is one of those who have been tempted by myths, he has used them in several of his novels, since his beginnings, which allows us to place him among the pioneers who resorted to myths, not only among Tunisian novelists , but also among Arab novelists. His novel "the dam" is considered the most mature Tunisian novel, which has used the myth with success and exposed the other aspect of the culture of Massaadi which was forged thanks to the influence of foreign literatures and ancient myths and its Arab culture which was the starting point in the knowledge of the culture of the other and its literature.

He built the events of the novel on the idea of genesis, he gave his hero mythological traits and dimensions, whether at the level of acts or at the level of qualities, he also injected other mythological characters from another world. But what are these characteristics? and where is the myth located? it is at the level of events or personalities.

Keywords: myth, dam, symbols, Gilan, mimouna, auspicious, gods, creation, Sahab.

مقدمة

شكلت التجربة الروائية لمحمود المسعدي منعطفا هاما في تاريخ الرواية التونسية المعاصرة ، ولأنه كذلك فقد حظي بالعديد من البحوث و الدراسات التي سعى الكثير منها إلى الإلمام بتلك التجربة وإبراز دوره في الحياة الثقافية التونسية ، هذا الدور الذي جعله أشبه بالشابي ، يقول الحبيب محمد علوان : ((السد عمل أدبي عملا ق في الأدب العربي المعاصر في تونس ، وفي دنيا الرواية تفتخر به مثلما تفتخر بديوان شعري واحد هو أغاني الحياة لأبي القاسم الثاني) (**محمد الحبيب علوان ، تونس 1994، ص8**

بل إن منزلة المسعدي لدى أكثر من ناقد تونسي تكاد تعانق منزلة نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم في الأدب المصري أو نزار قباني وحنا مينة في الأدب السوري، أو مفدي زكريا والطاهر وطار في الأدب الجزائري، ومن الظواهر العامة التي يمكن تسجيلها على العديد من تلك الدراسات التي اهتمت بأدب المسعدي ظاهرة التأليف المشترك والتباين من حيث الأهمية و العمق ، حيث غلب على بعضها طابع التجميع مثل كتاب(محمود المسعدي وكتابه السد) لنور الدين صمود الذي جمع فيه مجموعة من المقالات النقدية المتفاوتة الطول والقيمة لعدد من كبار الكتاب أبرزهم طه حسين ومحمد مزالي و الطاهر قيقة والمسعدي نفسه،وصدر له بمقدمته مستفيضة أتى فيها على الكثير مما يتعلق بحياة المؤلف وقدم تحليلا للرواية أخذا أكثر من ثلاثين صفحة "حجم متوسط"، صدر الكتاب في طبعته الأولى سنة 1973 و أعيد طباعته بعد ذلك مرات عديدة .

و من هذه المصنفات التي ميزها طابع التأليف المشترك كتاب "إرادة الخلق و الفعل في السد" لعدد من الدارسين التونسيين ، وهوكتاب مدرسي موجه لطلبة البكالوريا باعتبار أن" السد "كان ضمن مقررا ضمن برامج التعليم الثانوي ومن نلك المصنفات التي ميزها طابع التأليف المشترك أيضا ،كتاب "بحوث في خطاب السد المسرحي" لعادل خضر وألفة يوسف الصادر سنة 1994.

ويعرف الاهتمام بأدب المسعودي في السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا تمثل في التخلي عن ظاهرة التجميع و التأليف المشترك و الغايات التعليمية ، والجنوح نحو التعامل العلميوالأكاديمي مع كتاباته، حيث صدرت بعض المصنفات الهامة لأساتذة وباحثين لهم ثقلهم المعرفي و العلمي في الحياة الثقافية التونسية وبعضها (أي هذه البحوث) كان عبارة عن رسائل وأطروحات جامعية اهتمت بالكشف عن مضامين أعماله و أدواته الفنية ومرجعياته الفكرية والثقافية ، وكانت انطلاقة هذا التوجه بصدور كتاب محمد طرشونة" الأدب المريد في أدب المسعدي" الذي لا يزال –رغم مرور الزمن– من أهم المصنفات التي سعت إلى الإحاطة الشاملة بما قدمه المسعدي،صدر بعده كتاب الحبيب علوان " محاولة في فهم رواية السد"، ومن هذه الكتابات التي تنحوا منحنى أكاديميا كتاب "جدلية الثورة والجسد في مسرحية السد " للهادي الغابري و"خصائص الأسلوب في أدب المسعدي" لفاطمة الأخضر و" البطل في مؤلفات المسعدي " لمحمد قوزي البيولي (**جلال الربعي ، تونس 2006، ص 8**) و" أسطورة الخلق في كتاب السد" لجلال الربعي ، ورسائل جامعية أخرى بعضها قدم في جامعة عنابة والجزائر.

السد وإشكالية التصنيف :

ما أن تتصفح هذا العمل وتشرع في دراسته وتقويمه وقبل الانتهاء من قراء ته حتى تقع في حيرة عندما تسعى إلى تصنيفه وبيان شكله ، ولم يتفق بعض الذين عرضوا لهذا الأثر على تصنيفه في خانة بعينها ، هل هو رواية أم مسرحية أم قصة ؟ ووجد الكثير من الباحثين الذين عرضوا له بالدراسة والتحليل مشقة كبيرة في استنتاج شكله واختلفوا حول نوعه وطبيعته ،حيث ذهب فريق منهم إلى أن السد رواية ، ومن هذا المنطلق شرعوا في دراسته وتقويمه ، في حين رأى آخرون أن السد أقرب إلى المسرحية منها إلى الرواية ، وكان عيسى الناعوري من أوائل النقاد الذين اعتبروا السد مسرحية قال ظهرت مسرحية "السد "للأستاذ محمود المسعدي وزير التربية و التعليم في تونس، ونظر إليه الهادي الغابري من الزاوية نفسها

فأصـدر كتابا بعنوان "الشـكل الفني في مسـرحية السـد" وسـار على نهجه كل من عادل خضـر وألفة يوسف في مؤلفيهما " بحوث في خطاب السد المسرحي" .

وتأرجح نور الدين صمود في مؤلفه "محمود المسعدي وكتابه السد" في تصنيفه بين فني المسرحية والرواية فهو مسرحية حين يقول هذه هي ميارى يقدمها المؤلف عند ظهورها في المسرحية أثناء المنظر السادس ، وبعد ثلاث صفحات نراه ينظر إلى النص على أنه رواية فيقول هذه هي شخصيات الرواية. وكان عبد الحميد يونس من أوائل الدارسين الذين وقعوا في هذه الإشكالية وأحتار في تصنيفه له وعبر ذلك بقوله: أشهد أني منذ أن بدأت أطوف حول هذا السد أصعد فوق مدارجه وأنا أتسأل بيني و بين نفسي أي نوع أدبي يمكن أن يسلك فيه هذا الأثر ، وخيل إلي أنه قصة مرسلة و لكن تقسيمها إلى مناظر واعتمادها الحوار جعل فيها من خصائص الدراما عناصر، و من خصائص القصة الحرة المرسلة عناصر أخرى ، وخيل إلي أن هذا العمل في نزلة بين المنازل بين الدراما و القصة(**نور الدين صمود ، 1983**)، وهو الرأي الذي نعثر عليه لدى أكثر من دارس يقول الحبيب محمد علوان ((ان المسعدي لم يكتب رواية خالصة و لا مسرحية خالصة و إنما جمع بينهما)) (**الحبيب علوان ، ص42**)

وذهب آخرون إلى أنها مسرحية رمزية من المسرح الذهني الذي أعد للقراءة و ليس التمثيل، وكان ذلك عاملا آخر جعل البعض يرى أن السد مسرحية ، ومحمد مزالي أحد هؤلاء القائلين بأن "السد" مسرحية رمزية ((السد مسرحية زاخرة بالرموز و السحر يعسر أحقادها إلي نوع أدبي و لكن تعبر عن مشاكل جعل من البناة و حيرتهم)). (**المسعدي ، ص18**)

وانطلق هؤلاء من عوامل أساسية منها شيوع ظاهرة الحوار وقلة مواقف السرد والوصف ، والحوار هو العمود الفقري للنص المسرحي ، حيث افتتح النص بمواقف حوار وختمه بحوار أيضا وقسم النص إلى ثمانية مناظر، والمناظر تقنية شاع استعمالها في التأليف المسرحي.

وما أن تخرج من إشكالية تصنيفه حتى تعترضك إشكالية أخرى مردها هذه المرة غموض النص وصعوبته ، فقراءته عسيرة وفهمه أعسر، بل إن الرغبة في الولوج إلى مضمونه أشد عسرا لكثرة ما وظف فيه من رموز وأساطير مختلفة المصادر و الدلالات ، وجمع فيه بين فلسفات وآداب و تواريخ بعضها قديم وبعضها الآخرحديث وبلغة عاد به إلى العصور القديمة ، وهذا يعني أن من يرغب في معرفة دقائق هذا النص وأبعاده لا بد له من ثقافة كبيرة تكون له جسر عبور إلى عالم المسعدي.

وهكذا فإن كثافة المادة الأسطورية وتنوع مصادرها وثرائها ظاهرة طبعت الكتاب ، حيث حوى النص العديد من الرموز الأسطورية والدينية التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة وجميعها عوامل ساهمت مجتمعة في جعل السد نصا مغلقا،((إن أحداث النص تدور في جو يغلب عليه طابع الرمز و الخيال ، جو تحول فيه الشخصيات وتتحدث فيه الحيوانات ، وتتحول الأحجار إلى مخلوقات ،كما تتحدث الأطياف بأصوات مسموعة دون أن يظهر لها أثرا ، ويمثل الجبل واقع الحياة الذي يتحكم بحياة البشر اليومية ،كما يمثل الوادي الويلة لإنقاذ البشر من واقعهم الشقي ....)) (**نور الدين صمود ، ص 143**).

وقد شكا طه حين من هذا الغموض والتعقيد الذي ألقى بضلاله عن النص فقال: ((ولست أدري أفهمت هذه القصة أم لم أفهمها ، فهذه طبيعة الرموز و هي كذلك طبيعة الشعر الذي لا يقبل الفهم السريع و إنما ..... هذا الغموض الخصيب الذي يضطرك الي أن تقرأ و تقرأ أو يعطيك في كل قراءة شيئا لم تظفر به في القراءة الأولى.)) (**نور الدين صمود ، ص 54**)

بواكير الأسطورة في أدب المسعدي

ظلت الأساطير عبر التاريخ وفي مختلف الحضارات من أهم الخطابات الإنسانية التي كانت غايتها الإسهام في تفسير الكثير من الظواهر الكونية التي عسر على الإنسان فهمها ، و أدت عبر التاريخ دورا فكريا و عقائديا في مرحلة كان الانسان في حاجة ماسة إليها .

ومواكبة للتطور الذي عرفته البشرية بدأ مجالها في الانحسار، ومما أصابها من تحول أنها انتقلت من مجالات الشعائر الدينية إلى الفن وبدأت في فقد وظيفتها الطقوسية وخرجت من رحم المعابد إلى ركع المسارح ،من الدين إلي الفن ،وتحولت إلي معين لا ينضب استغلتها الإبداعات الفنية في شتى أجناسها وأشكالها مسرحا ورواية و قصة وشعرا ، على الرغم من أنها تعود إلى زمان غير زماننا وثقافة مختلفة عن ثقافة العصر الذي نعيشه ، ومع كل هذا التغيير وبعد المسافة إلا أنها ويفضل ما يميزها من مواصفات جمالية و أبعاد دلالية ، بقيت على نبضها تتدفق بكثير من الأسئلة المنفتحة على العديد من القرارات مهما اختلقت التأويلات ، ويلجأ إليها المبدع في كل عصر سواء لدوافع فنية و جمالية أو لاعتبارات فكرية (**جلال الربعي ، تونس 2004**)

ومع أن الأسطورة تزخر بكل هذا إلا أن الكتاب العرب و في شتى الأجناس الأدبية لم يقبلوا على استلهامها إلا في الفترات الأخيرة ، حيث ظهرت التجارب الأولى لحضورها لدى لكل من توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثيروخليل هنداوي وسعد الله ونوس وغيرهم من رواد المسرح الأسطوري في الأدب العربي الذين أقروا بفضل الحكيم الذي فتح هذا الباب أمام حركة الكتابة الإبداعية .

وعلى مستوى الكتابة الشعرية كان السياب والبياتي وخليل حاوي أبرز الأسماء التي وظفت الكثير من الرموز و الأساطير المتنوعة الدلالة والمختلفة المصادر .

ولاشك في أن الاهتمام المتزايد بتوظيف الأسطورة واستحضارها مرده الزخم الدلالي والبعد الفكري الذي يميز هذا الشكل الذي يبيح للكاتب قدرا كبيرا من التعبير وتعميق الشعور بالتواصل مع البشرية نظرا لكيونة الأسطورة واتساعها زمنيا ومكانيا ، الأمر الذي حفز العديد من الكتاب على الاحتماء بها و والاستناد عليها، وعليه فإن المواصفات الإجمالية والفكرية التي تزخر بها الأساطير كانت عاملا أساسيا في الإقبال عليها وتوظيفها.

كانت رواية"حدث أبو هريرة قال" أول تجربة للمسعدي مع عالم الأساطير ، حيث تعود فترة كتابتها إلي بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1939، وانطلاقا من هذا التاريخ فان المسعدي يعد أحد رواد الأسطورة في الرواية التونسية المعاصرة و أحد الأسماء في عالم الرواية العربية التي أقبلت على هذا المصدر في فترة جد مبكرة ،كان فيها ذا المصدر لا يزال يتحسس أو يبحث لنفسه مكانا ضمن بقية المصادر الروائية الأخرى .وعلى المستوى المغاربي فإن "السد" مثل التجربة الأولى في توظيف الأسطورة واستحضارها ، بحيث لا نعرف خلال هذه المرحلة غيرها واستمر صاحبها رائد هذا الاتجاه إلى مرحلة الثمانينيات حيث صدرت "إيميل شيل" لسعيد علوش و"الحوات والقصر " للطاهر وطار ثم بدأ هذا الرافد في الحضور لدى العديد من الكتاب المغاربة .

نشر المسعدي بعض فصوله هذه الرواية مع بداية سنة 1945في مجلة المباحث التي كان رئيس تحريرها ، وبقي الحديث محظوظا إلى غاية سنة 1973 حيث دفع به إلى الطبعة وكان المسعدي يومها يشغل منصب وزير الشؤون الثقافية التونسية .

بنى رواية "حدث أبو هريرة قال .." على أسطورة جاهلية هي: "أساف و نافلة" وهما كما تقول بعض المصادر القديمة صنمان كان يحظيان بكثير من التقديس لدى عرب الجاهلية ، حيث وضعتهما قريش بالقرب من الكعبة وزمزم وهما من أشرف الأماكن ، وكانت تقدسهما بتقديم القرابين إليهما والنحر عندهما ، فغدا محط أنظار العديد منهم يعقدون عليهم أمالهم و يرون فيها ملاذ آمنا (**عفت الشرقاوي ، ص113**)

ومما لا شك فيه أن في سرد الملابسات التاريخية لهذه الأسطورة ما يكشف اهتمام المسعدي بالأبعاد الرمزية والتعبيرية التي دفعته إلى استدعاء هذه الأسطورة و اللجوء إلى توظيفها ، ذلك أن الأسطورة

اكتســـبت بمرور الزمن طاقة دلالية وأبعاد دينية مكنت لها ضـــمان الخلود على تعاقب الأجيال و تبدل الأحوال وترسخ في الذاكرة العربية.

وخلافا لعدد من المبدعين العرب اللذين أكثروا من الاتكاء على الأســاطير الإغريقية ، فان المســعدي اعتمد توظيف أســاطير عربية في أول تعامل له في التعامل مع هذا الرافد ، أصــدر بعدها رواية "الســد" وفيها تعميق لظاهرة توظيف الأسطورة في تجربته الابداعية وإثراء لها.

قدم المسعدي في روايته "حدث أبو هريرة قال " صورة ـــــــكما يقول توفيق بكار- لمثقف وعي ذاته في رياح العصر التي رفع المجتمع إلى التقدم و الحرية ، فانطلق يبحث له عن مثل جديدة تشيد بجلال الإنسان و قدرته على صنع مصيره ، و إذا السعي الجسور يتبدد في متاه اللامعنى و تذوب في آلام العجز نشوة الخلق .

الحضور الأسطوري في رواية السد

بنى المسعدي أحداث الرواية على وقائع يصعب تخيلها وأسند أدوارها إلى شخصيات ذات أبعاد وملامح أسطورية سواء ما تعلق منها بالأفعال أو الصفات، تجري أحداث النص في جو أسطوري بامتياز وتشيع فيه الكثير من مفردات هذا العالم ، بطله رجل يدعى "غيلان" وزوجته "ميمونة " وقد ذهبا إلى العيش في أرض وعرة جدباء على منحدر جبل((أخشـــب غليظ خزيز نباته كالإبر وأرضـــه ظمأى و غباره كثير،...آخر عشـــي امرأة و رجلان يصـــعدان في عقبة و يجران ورائهما بغلا عليه خيمةوعتاد ، وتنتهي بهما العقبة عند كهف فيقفان))

يســكن هذه الأرض الجدباء قوم يعبدون الآلهة "صــاهباء" التي تشــكل صــورة مجملة لبؤســهم وشــقائهم ، وفي هذا الجبل منبعا مائيا لو اســتغلوا لتغيرت حياتهم و انتقلوا من الشــقاء إلى الســعادة ، ولكنهم يحرمون عن أنفســهم مد الأيدي إلى ذلك الماء لأســباب دينية ، غير أن غيلان الرجل التواق إلى

الغد سعى إلى التغلب عن ذلك و شرع في بناء سد ليهب به سكان الجبل الحياة ، وهو الأمر الذي لم تشجعه عليه زوجته "ميمونة "،وشرع في العملولكن السد تجرفه العواصف والأعاصير التي سلطتها الآلهة "صاهباء "، فيعاود العمل ثانيا تشجعه في ذلك "ميارى" ولكن الآلهة "صاهباء" تحاربه وهو يعيد البناء وهكذا.

جاء عنوان الرواية حاملا للفظة "السد" بضم العين أو فتحها وهي لفظة مفردة ولكنها مشحونة بكثير من الدلالات والمعاني تحيل القارئ إلى الحياة والظل والخضرة والحياة ، وترجعه إلى الماضي البعيد ، إلى حضارة سد مأرب الذي بنته بلقيس ملكة سبأ في اليمن قبل الإسلام ، وهي الحضارة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وتذكر العديد من كتب الأخبار أن مملكة سبأ كان تعيش حينها حالة من الرخاء و الرفاهية والتحضر لاسيما في عهد الملكة "بلقيس"، ووفقا لبعض الأساطير والمصادر القديمة فأن إحدى الملكات لم تكن عادلة في توزيع الماء ، مما أغضب إله المطر فأرسل الصواعق والسيول المدمرة فهدم السد ، وبانهياره أصيبت مدينة مأرب بالقحط والجفاف وشاع الجوع ، وكادت الناس أن تهلك بسبب ضياع ذلك السد الذي كان رمزا للخصب و النماء والحياة, وهكذا يبرز الماء ((كعنصر من عناصر الخلق ، مرتبطا بمرجعيات أسطورية و دينية و تاريخية ، و لذا سعى الإنسان دوما إلى لسيطرة على الماء (**توفيق بكار** ، **ص38**)

ولم يكن هذا السد هو الطوفان الوحيد المدمر الذي هلك الإنسان والحياة ، حيث حفظت الكثير من القصص والأساطير أخبارا عن مثل هذا الطوفان المدمر ، وأقربها إلى الذهن العربي قصة سيدنا نوح (عليه السلام) مع قومه ، حيث أهلك الله الجميع ولم يسلم سوى نوح ومن كان معه في الملك كما أخبر بذلك القران الكريم .

ولم يخرج الطوفان في سد المسعدي عن هذا الإطار العام ، حيث كان بأمر من الآلهة "صاهباء" التي رأت أن في تشييد غيلان للسد وأشاعه الخضرة والنماء خروجا عن نواميس الحياة في الوادي، لأنه يعني خلق الحياة في هذا الجبل أو الوادي ، والخلق كفعل من وظائف الآلة لا يشاركها في صنعها هذا أحد ، و كل من سعى إلى ذلك عوقب عقابا كبيرا ، على نحو ماعاقبت الآلهة في المثلوجيا اليونانية بروميثيوس الذي سعى إلى تحرير الإنسان من العبودية ، وهو الحلم الذي رأته ميمونة قبل وقوعه فقالت تخاطب غيلان:" رأيت الماء جاريا من الجماجم سائلا من ثقاب الأفواه والمناخر كالمخاط ، وإذا الجبل يتحرك أمامي والطيور تشده من شعره)) (**محمود المسعدي ، تونس 1992 ص 7**)

والسمة المشتركة بين قصص الطوفان مجتمعة وبغض النظر عن مصدرها أنها تعبر عن النهاية التراجيدية للإنسان ، وهي الدمار والفناء و الهلاك لتلك الفئة من البشرية الكسالى المتواكلين الذين لا يحسنون صنعا ومن تبعهم بغباء ، أما المؤمنون بالفعل والقيم فإنهم من الناجين الفائزين سواء في الفلك المشحون كما حدث مع سيدنا نوح وأتباعه أو في الارتقاء على الأجنحة على نحو ماجرى لغيلان حين أخذته "ميارى "وطارت به و شجعته ليبدأ الرحلة من جديد.

ومن النقاط المشتركة أيضا ، أن الطوفان يكون قرارا إلهيا أو لنقل فوقيا ، وعقابا لهذا الإنسان الذي يطغى ويتجبر ويخرج عن الجادة ، فالدافع إليه سوء أخلاق هذا الإنسان الذي خلقه الله ليعمر الأرض ويشيع العدل وينشر الحب والخير ، وإذ به ينحرف عن هذا الهدف الذي خلق من أجله فيخرب الأرض ويشجع على الفساد ، ولكن الدافع إلى الانتقام في سد المسعدي مختلف مرده أن الآلهة "صاهباء" خشيت أن يشاركها الإنسان ملكها ، لأن الخلق وظيفة إلهية ، وهي التي حذرته من ضيعه وحين لم يأتمر بأمرها أنزلت به التهلكة والدمار.

وظف المسعدي الحلم الذي يعد من التقنيات التي شاع توظيفها في الكتاباتالمعاصرة ، لأنه بسهم في القضاء على الترتيب الزمني ويقرب المسافة ، حيث حلمت ميمونة بذلك و قصت الحلم على غيلان.

وملامح الأسطورة حاضرة أيضا في الفعل الذي يقبل عليه غيلان بطل النص ، فلا خلاف أن الخلق يكون من الماء قال تعالى:"و جعلنا من الماء كل شيء حي"، ولا يخرج السد عن هذه القاعدة ، فحين لاحظ غيلان أن سكان الجبل يعيشون حالة من القحط و الجفاف والماء ينساب بين حافتي الوادي ، شرع في بناء سد يحي به الأرض و يشيع الحياة ويسيطر على تلك المياه التي كانت تضيع هدرا ، ولكن الآلهة "صاهباء " تفشل مشروعه ، و تحول دون ذلك فتهدم السد و لكنه لا يستكين فيعاود الفعل مرة أخرى و هكذا (**جلال الريعي ، ص54.**)

فالنص يعالج مشكله الفعل وعلاقة الإنسان بالمكان ويقدم شخصيات تحاول الارتقاء إلى مصاف الآلهة ، فغيلان في بعض سلوكياته أشبه بالإنسان الذي يتأله (يصبح إلها) أو صورة الآلهة في الفكر اليوناني ، ذلك الإله الذي لا يختلف في كثير من الصور عن الإنسان العادي ، فهو يأكل و ويشرب، يحب و يكره و يرد في صوره المختلفة . و"ميارى"ـ الأخر ى ـــــــ شخصية أسطورية استمدها المسعدي كما يقول الحبيب علوان من الأساطير الهندية وتعني إله الشر ، ولكن حورها بأن أسند إليه وظيفة غير تلك التي شاعت عنها(**المسعدي السد ، ص 75**) ، حيث وصفها في مقدمة النص بأنها ((خيال وطيف وحب وجمال ولدت في ظلم الليل شعرها كرغوة القمروجمالها نعومة ورواء ، ولاشك في أن الطابع الغيبي سمة من سمات الأدب الأسطوري

الملامح الأسطورية في السد

تشكلت مفردات هذا العالم الأسطوري الذي قدمه المسعدي في "السد" في جملة من المواقف والسلوكيات والأفعال يمكن الإشارة إلى أبرزها:

ـــ رسمه لشخصية غيلان فهو في بعض وجوهه أشبه بـــ"بروميثوس" من حيث التمرد على السلطة الدينية ، ويشبه سيزيف في هاجس البناء وإعادته كلما فشلت المحاولة .

ـــ تحول بعض الأشياء الجامدة إلى أشخاص ، حيث تحولت الأحجار التي كان يجلس عليها غيلان وميمونة إلى فتيات ناطقات ، وتولد من ذلك الانقلاب سمات الأنوثة والجمال كاللين والحمرة وســـواد الشـعر ، وينشـئن حوارا فلسـفيا ويناقشـن بعض القضـايا الفكرية ، ويسـعين إلى تعليم الإنسـان ويقدمن النصيحة ، أما موقفهن من الآلهة صهباء فقد اتسم بالازدواجية أو ثنائية الظاهر والباطن فظاهره التقديس وباطنه السخرية (**المسعدي ، ص 124**) ، وقد طال حوارهن وشغل المنظر الرابع كله

ـــــــ اكتسب البغل سمات إنسانية كالقدرة على الكلام والتفكير والتساؤل ومحادثة النفس والإحساس بالخوف والرعب يسـمع ويتكلم ، بل ويدلي بالنصـيحة ، وقد تكلم البغل ثلاث مرا ت ، ((وواضـح أن البغل لا يتكلم إلا في المنظرين اللذين قامت فيهما شخصيات جماعية ، وحين يغيب غيلان وميمونة:

ـ خروج البطل عن طبيعته النفس البشرية فهو يشبه الإنسان المتأله ، حيث يحاور شخصيات غير مرئية (ميارى) ، ثم يتحول في آخر النص إلى مخلوق آخر يطير ويختفي عن الأعين .

ـ تقديمه للجبل على شكل إنسان أو حيوان له شعر طويل والطيور تحره منه.

وقد لخص الحبيب علوان بعض هذه الملامح بقوله : ((انقلاب السمك في الطاجن كائنات متكلمة بلغة الإنسان ومنشدة الشعر يجعلنا نتذكر انقلاب الحجارة جوار تتحاور في السد ؟ وقد يخطر على بالنا آنذاك بغال وحمير وطيور بن شهيد في وادي الجن "برسالة التوابع والزوابع " تصنع الشعر وتنقد الأدب ، ولعل في "رسالة الغفران" للمعري وفي مسرحية "الضفادع" لأرسطوفانيس شيئا من هذا)) (**المسعدي ، ص109**)

ـ حضور الآلهة "صاهباء " في مجموعتين ، تتشكل المجموعة الأولى من ستة أشخاص وإناء ، والثانية من ستة أفراد وسابعهم طبل ، ثم يضعون الماء أمام الكهف وينشدون سائلين للماء النار وللسد الدمار وليدي غيلان البتر ويغرفنا الكاتب في هذا المنظر في ((جو من دردشة دينية وشعوذة وألغاز وطلاسم بعيدة الرمز تسيطر عليها روح دينية خرافية قائمة كقصة هاروت وماروت وقصة أهل الكهف ، وقد حافظ المؤلف على

الرقم سبعة كما هو في الأديان والسحر والأساطير القديمة ، فالسماوات سبع وأيام الأسبوع سبعة وملوك الجان سبعة وأصحاب الكهف سبعة والمقامات سبعة عند الصوفية)) (**محمد الحبيب علوان ، ص 39**)

كان المنظر الرابع من النص أكثر إغراقا في عالم الأساطير، حيث تحولت تلك الأحجار التي كان يجلس عليها كل من غيلان وميمونة إلى جوار يتحاورن فيما بينهن ، ونفهم من خلال الحوار وتبدي إحداهن عجبها من عجز الإنسان واستسلامه للخرافات والقوانين وقبوله للأمر الواقع .

وتقول الحجر الثالثة التي كان يجلس عليها غيلان :((كذا البشر يا ديادالايهون إلا الأوهام ولا يغرون بغيرها ....وما من شيء ولا من مخلوق ولا من حي إلا ويتخذ من حياته أهواء وعادات شاغلة ، فالآلهة من دأبها أن تخلق العوالم ثم تنزوي ...فتنشغل بلعبة الشطرنج ، ونبيتا من دأبه أن يجمع فيدخل الأصوات والبشر أن يجمعوا الأوهام والمعتقدات يؤمنون بالله وبالشيطان وبالإنسان وبالقبح وبالجمال وبالطب والموت وبالدنيا والآخرة وبالعمل وتمائم السحر وبقدرتهم والسدود في الصحاري)) (**محمد الحبيب علوان ، ص 17**)

ويتحول الحجر الثالث الذي كانت تجلس عليه ميمونة ـ هو الآخر ـ إلى جارية أيضا وتقول ردا على خطاب زميلتها ((هؤلاء الغرباء يا أخية ماذا يريدون ؟ ماذا يهمون أنهم يريدون)) (**محمود المسعدي ، ص 110**)

وترتل الحجر التي كان يجلس عليها غيلان نجيل صاهباء قائلة : أعوذ بصاهباء من الشيطان الرجيم ويلتفتن إلى السد ويقلن بصوت واحد كذا هم لم يقصر فكرهم على شيء مثل قصوره عن إدراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاستسلام ، ثم تبدي إحداهن تخوفهن من إذاعة هذا السر فتقول مخاطبة زميلتها :((أسكتي لا تبوحي بسر الآلهة والأنبياء ،سر حكمتهم وسياسة السماء)) (**محمود المسعدي ، ص 93**)

وبعد انتهاء لحوار ينقلبن إلى حجارة ، وإذا البعل يخرج ـ هو الآخر ـ عن طبيعته ويتحول إلى مخلوق يحمل مواصفات الانسان يسمع وبفهم ويتحدث ، وكأنه يعلق على الحوار الذي كان دائرا بين الجواري فيقول : ((إذا أصاب الحجارة جنون ينقلبن جواري ، إن جنون الجماد الحياة)) (**محمود المسعدي ، ص111**) ، وحين أبدت تلك الجواري تخوفهن من ذاعة ذلك السر وأوصت كل واحدة منهن زميلتها بكتمانه ، قال البغل الذي مع ما دار بينهن أما أنا فقد سمعته وسأبلغه لغيلان ربي .

قد يكون المسعدي تأثر في هذا المشهد برسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسي ، حيث تخرج عدد من الحيوانات كالطيور والبغال عن طبيعتها وتتحول إلى بشر فتؤلف الشعر وتنقد الأدب والأدباء ، لانملك إجابة ولكن أوجه الشبه قائمة بين العملين ، وتأثر الاحق بالسابق واردا لاسيما وأن المسعدي عرف عنه شغفه الكبير بالتراث العربي القديم ،

وامتد تأثير هذه الأساطير وجوها ليشمل خاتمة السد أيضا ، فالطريقة التي تم من خلالها هدم السد تشبه إلى حد كبير الطريقة التي كانت تعاقب بها الآلهة اليونانية مخالفيها ، حيث ساد جو مرعب كل ما فيه ينذر بالنهاية التراجيدية ، وتمثل ذلك في الرياح والعواصف والسيول الجارفة ، ثم يتحرك الجبل ويطحن السد والوادي ويقضي على كل مظاهر الحياة ، تخاطب ميمونة غيلان قائلة : أنظر أنظر الجبل يتحرك ، السيول ،السيول ، إني أسمع لحن السواد.

وتجلت الملامح الأسطورية في مواقف أخرى منها تقديمه للجبل في صورة أنسان والطيور تشده من شعره فيه ، فقد رأى أحد الدارسين أن المسعدي تأثر في هذا المشهد بأسطورة شمشون ودليلة اليهودية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المصادر والمراجع :

01- جلال الربعي ، أسطورة الجسد في حدث أبو هريرة قال ، مكتبة علاء الدين صفاقس تونس 2006، ص 8.

02- جلال الربعي ، أسطورة الخلق في كتاب السد من الترنيم الطقسي إلى التخييل الفني ،مكتبة علاء الدين صفاقس تونس 2004،

03- محمد الحبيب علوان ، محاولة في فهم رواية السد ، مطبعة الاتحاد تونس 1994.

04 - محمود المسعدي ، السد ، دار الجنوب للنشر تونس 1992 .

05- نور الدين صمود ، المسعدي وكتابه السد ، الدار التونسية للنشر ، ط 3 ، 1983